بلاشوف
قصة : عباس محمد عباس
ى. فايد

مازلت اذكره ..

حينما ملأ فمه بضحكه محموله وهو يترع الطاقية بحركة عنيفة عن رأس الصبي المسكين ماسح الاحذية الذى ابتلع شتائمه حينما ابصر قدم «جمعه» الحافية تستقر على صندوقه الصغير.. وارداد الصبي الكماشا فى جلسته وهو يوزع نظراته الخائفة المستفيئة بين القدم الملطخة العارية ، وبين الجالسين — غير بعيدين عنه — على قهوة المعلم حسونه .. ولعن الصمت الذى ساد الموقف اصفر جمعه فصرخ بلهجة متوعده :

— ياولاد امسح الكاموش الربانى.. احسن لك

ولم يتحرك الصبى .. بينما عادت نظراته تتسكع بين وجوه الجالسين على المقهى تستجدى الانقاذ .. واخيرا تحرك احدهم .. جار القهوجى .. قال بصوته المبحوح وهو يشخشخ القروش فى جيب مريلته القذرة :

— اسمع ياريس جمعه .. اديله القرش الاول وهو يوطب لك الجزمة.

وانطلق الصبى فجأة كصفارة الانذار :

— وهى فين الزفت .. الجزمة ؟

وانحنى القهوجى يصفعه على قفاه .. وقال مشيرا الى القدم المستقرة على الصندوق :

— امال دى ايه ياقفل ؟

وابتسم جمعه فى وقار .. وانطلقت من المقهى عدة ضحكات متباينة النغم بينما انفجرت فى وسطنا — نحن الصبية — قنبلة من الضجيج كنا نجيد تفجيرها .. **وهدأت** الاصوات حينما اخرج جمعه القرش اظهارا لحسن نواياه ، والقى به فى حجر الصبى وراح فى عطرسة مضحكه يدلك بالمواصفات:

— اولاد خطوط بيفى على وش الرجل .. والكعب بنى غامق ..

وانهمك الصبى فى عمله بينما كنا نراقب العمليه فى نصف دائرة صغيرة قلقة القطر ، وكالعادة.. بدأنا نعاكس جمعه بالشتائم والحصى .. وكعادته أيضا من صد الهجوم بدأ فى ارعابنا بان يتظاهر بأنه على وشك الامساك بنا فنفر فى كل اتجاه بفزع حقيقى وصراخنا المذعور يضاعف قدرتنا على الهرب ، لاننا كنا جميعا نخشاه . فالواحد منا كان يفضل الف مرة ان يبيت ليلة كاملة وبمفرده بين المقابر على ان يقع ولو لدقيقة واحدة فى قبضة جمعه الذى كان يحلو لنا ان نسميه «جمعه السكران» لكثرة ماكنا نراه مترنحا «سكران طينه» لايكاد يفيق من تأثير الكحول الردىء .. وكنا ننتظره كل يوم تقريبا امام نصار القال حينما يخرج بقامته المديدة وشعره السمراء وشعره المفلفل ونظراته المسعورة ، يضم بين يديه بحرص بالغ «كوزا» من الصفيح امتلأ بالسمرتو الأحمر .. ذلك الصنف الوحيد الذى كان يتعامل معه باستمرار دون عائلة الخمور كلها .. وكانت الرقة تبدأ من هنا .. هو يسب ويلعن ويحوقلنا .. ونحن نعاكس ونشتم ونعر .. وتستمر الرقة خلال الازقة حتى تصبح خارج الحى ، وحينما تلوح لنا الحرافة التى يأوى اليها جمعه كنا نبدأ فى التقهقر وملء ادمغتنا هذه الاساطير المرعبة التى

نفس حياتنا الطفل فى عرلها من مظاهر حياته الشـــاذة .. وانتهى الصبى من «الكاموش الربانى» ... وبـدلات الرقه المعـــادة بصفيـــق ماحن بداه جابر القهوجى حينما انزل جمعه قدمه من على الصـــندوق وكانه ملك يهبط عن عـرشه ... وتتبعناه بصجيجنا حتى المطعه الحرام .. ووقف قريبـــا من الحرابة مائلا كبرج بيزا يتوعـدنا .. وهنا حدث مالم اكن اتوقعه .. الولد حرن .. اكبر الجوقة سنا واثقلهـا ظلا على نفسى ضرب بمناى القابضـــه على الـكرة الشراب ـ التى تعبت فى حشوها طوال امس ـ ففرت من يدى واختـــارت مكانهـا بحيث فى منتصف المسافة التى تفصل بيننا وبين جمعه السـكران .. وشـــعرت بالغضـــب والحزن ولكننى اعتقلت ثورتى داخـــل نفسى فقد كنت اعلم مقدما النتيجة لو انى اشـــتبكت مع حـــرين «خنزير الفرقه» .. وتناثرت حولى الكلمات : «**راحـــت عليك ياكابتن .. يبقى ابوك جدع لو تقدر تجيبها .. يابنى سيبه ده بخاف من خيـــاله**» .. كل هذا لم يثر طبيعتى الحاميه بقـدر مالآلمتنى الفرصة التى اوشكت ان تضيع . فقد كنا سنلعب «فرقه» فى اليوم التـــالى وكـونى صـــاحب الكره يعطينى حق «الفتو» لارضى به نزعة «الفلس»التى اشتهرت بهـا .. وبالرغم من خـــوفى الشـــديد قـــررت ان اتحـــرك .. بل وتحركت بالفعل .. تعلت قدمى خطوة .. ثانية .. ثـــالثة .. كل هـــذا وجمعـــه مازال يقـــلد بـــرج بيزا .. والشلة توقفت تماما عن الصجيج وحكم المكان صمت نمـــوذجى وانا اتحـــرك خطوتى الأخـــيره ... وانحنيت على الكرة .. وفجأة .. اندفع جمعه تجاهى بـــرعة جمـــدت الدم فى عروقى فلم أستطع أن أتحرك مليمترا واحدا .. بينما انطلقت الفرقة بكاملها تجرى فى كل اتجاه وصراخها المذعور يوقظ اهل الكهف كانها عصـــافير تطردهـا عن أعشاشها بلدقية صياد .. وفى لحظه رهيبة ، صاعقة الخوف وجدت يدى سجينة فى كف جمعه الـــكران .. واعتقدت انه سوف يسلخنى ويحمل من لحمى مره .. واســـتبعدتنى رعشه عنيفه متصلة ويدى الصـــغيرة عارقه فى كفه الكبير اللزج .. ومضت لحظات دوت على اثرها احدى ضحكاته المحمولة التى بدت لى كانها دمـدمة ركان يوشك أن يلفظ احشـــاءه .. وغرز اصابعه فى كتفى بعد ان اعتق يدى وقال فى خشونة هامـــة :

ـ جـدع الى مهربتش زيهم .. انا احب الجدعان .. جدع والله فى زمن قلت فيه الجدعان ..

وقبل ان اتمكن من هضـــم كلماته شدنى من يدى الى الحرابة قائلا :

ـ انت من النهاردة صاحبى واخويا

وشردت منى نظرة نحو الشلة وهو يجرنى خلفه ، وكانت حصـــيلة هـــذه النظرة التى قد اصبحت بطلا يمكننى أن أتصدر ـ ولعـــدة أيام ـ نـــدوة «الدحل» التى كنا نعقدها فى الأمسيات الحميلة على ناصـــية الحاره . وطـــرد الزعو الزعدة عن جســـدى ونجحت فى أن احمل خوفى مستترا وهو يجلسنى قبالته على حجر كبير بينما افترش هـــو الأرض مسندا ظهره الى سور مدفن اليهـــود الذى يحتضن الحـــرابة من

احدى جهاتها .. واشعل النار بين قاليين من الطوب الاحمر ووضع عليهما «كورا» يضم تشكيلة غريبة من نفايات الطعام يستعملها كمرة .. وتفرع شجرة قدر احد يقلب مرته ، وحينما بدأت الابخرة الكريهةتتصاعد منها راح يلقى فى جوفه بالسيرتو ى نهم ولدة .. وقال وعلى شفتيه تلمع ابتسامة شبه مهذبة .

ـ قوللى .. انت بتروح المدرسه ؟

ـ أيوه ..

ـ يابختك !

قالها فى نبرة تعصرها الحسرة .. وتضايقت .. فاى شىء فى المدرسة يحسدني عليه هذا السكير ..انه لايعرف تريقة مدرس الحساب واصفاره .. ولا خيرانه هداوى الندى مدرس الالعاب .. واوشكتان ابوح له بكل قرفى المدرسى ولكننى لم افعل لانه اغمض عينيه واسند راسه على سور المدفن وقال بعد فترةصمت وهو يعبث بالكور فى يده :

ـ ياسلام ع الدنيا .. خلاص كنت حشتغل فى البنك .. البس البدلة الصفرا والزرار النحاس .. وبعدين يجى ابن الكلب الخواجه يقوللى : تعرف تكتبى اسمك ؟ قلت له : لا .. قالى : ((انتى موش ينفع)) ... ابن الكلب يجى من بلدهم يركب عربية ويعمل مدير ويقوللى انا .. انتىموش ينفع .

وتمدد بينما ـ بعض الوقت ـ صمت مريب القسمات .. وابصرت انسانى عينيه وهما يتالقان كحرزتى الفسفور حينما ضغط ذراعى وقال :

ـ انت بتعرف تكتب وتقرا ؟

وهالنى سؤاله الغبى .. فكيف لااعرف وانا «الفه» ثالثة رابع وبعد عام آخر سوف احصل على شهادة «قد الدنيا» اسمها الابتدائية تنوى امى ان تعلقها فى اطار الى جوار صورة ابى .. وتحملت بالصبر وانا اجيبه :

ـ طبعا

قال ونظراته تضاعف لمعانها كأنما ابهرها رؤية كنز من اللآلىء :

ـ خلاص .. علمنى

ولم اجد ماأقوله .. ويبدو ان صمتى اصابه بخيبة امل .. فهمس فى استجداء اربكنى :

ـ علمنى .. واذا غلطت اضربنى

اأضرب جمعه السكران ؟! اى جنون هذا ؟! واستطعت بصعوبة ان اجمع على لسانى حروف كلمة «موافق».. وابتسمت كل ملامح وجهه والتصب واقفا بحيوية غريبة عنه وكأنه لم

«يطمح» منذ قليل كل هذا السم .. وبسرعة كسر احد قالبى الطوب الاحمر وقدم لى «شافة» منه .. وفى جزء مازال بياضه متماسكا من سور المدفن كانت سبورتنا .. وكتبت صفا من الحروف الهجائية وبدأت انطق له

الحرف فيردده خلفي بحماس من يتحاشى الخطأ .. واعطيته القلم الحجري لكي يتعلم رسم الحروف ..

وكان كلما انتهى من حرف تراجع الى الوراء قليلا لكي يرى مدى توفيقه على بعد مناسب وكأنه فنان يضع الرتوش الأخيرة في لوحته .. والحقيقة ان منظره كان بديعا .. طرف لسانه مكور بين شفتيه .. وفي نظراته انبهار متفعل .. وفي حركاته فرحة وطيش.

وحينما بدأ يعالج حرف الحاء انفجرت خلفنا ضحكة صاخبة جعلت جمعه يلوي رأسه في حدة وقلق واستطلاع .. وكان صاحب هذه الضحكة عم ابراهيم حارس المدفن الذي وقف بكرشه الكروي ومنظره الكاريكاتيري يخبط كفا على كف ، وحينما انهكه الضحك بدأت الكلمات تنهمر من فمه كأمطار المناطق الاستوائية :

ـ يخرب بيتك ياجمعه .. عايز تتعلم .. أدى اللي ناقص الحمير اللي زيك كمان تتعلم يا عالم الحتوني .. انت مجنون .. انت .. انت .. انت.

وبدا ان عم ابراهيم لم يكن يفكر في السكوت .. وشعرت بالرعب يدق اعصابي من جديد حينما ابصرت جمعة يتحول الى وحش حقيقي وهو يهجم على عم ابراهيم .. ويركله ويعضه ويبصق عليه بحركات هستيرية .. وعم ابراهيم يصرخ ويصرخ حتى حضرت كلابه التي تشاركه حراسة المدفن وتدخلت الى جانبه في المعركة .. وتحلقت الكلاب جمعه تنهره من كل ناحية .. كان المنظر رهيبا .. الكلاب تنبح وتعقر .. وجمعة يقاوم ويصرخ ودمه يسيل، وملابسه تتمزق وعلى الطريق الاسفلت الذي يحد الخرابة من الناحية الاخرى ، اوقف عربجي حنطور عربته وحضر يجري بسوطه وكلماته الجارحة تسبقه :

((ياجدعان عيب .. صلواع النبي امال))

.. واستطاع ان يقنع عم ابراهيم بكرشه وكلابه .. وذهب العربجي بعربته وسوطه .. حتى الشلة لم اجد لها اثرا .. وبقيت انا وجمعه والصمت .. وانكمش جمعه الى جوار السور وقد لطخ الدم جسده في اكثر من موضع واخذ يخبط رأسه برتابة ولين في سور المدفن المتآكل وهو يتمتم :

ـ ليه مانعلمش ؟ هو انا مش بني آدم ؟ يعني بس لو كنت اعرف اكتب اسمي ؟ كنت لبست البدلة الصفرا.. والزرايز النحاس على الاقل .. مش كده ؟

ورفع وجهه نحوي .. كانت في عينيه دموع .. جمعه السكران يبكي!! .. من الممكن ان اصدق اي شيء .. اي شيء الا هذا .. وكما يذوب الجليد تحت اشعة الشمس ذابت الاسطورة في داخلي وانا اراقب خرزتي الصغور وهما تفرقان وسط دموع عادية كتلك التي اراها في عيني اخي الصغير .. وفجأة برزت الشلة ووسطها ابي جاءوا به لينقذني من جمعه السكران .. وذهبت معهم .. ضربني ابي في البيت حتى لاأذهب مرة أخرى ناحية الخرابة .. وجلست امي تحدثني مايقرب من الساعة عن العفاريت التي تسكن جسد جمعه .. وبالرغم من اني لم اجلس مع جمعه في الخرابة مرة اخرى الا انني في صباح اليوم التالي .. وكل صباح كنت اتعمد ـ وانا في طريقي الى المدرسة ـ ان امر من الشارع الاسفلت المجاور للخرابة لكي القي اليه من بعيد بالتحية .. وبلا خوف .

عباس محمد عباس